

فيمن الداء ؟

في الشيوخ أم في الشباب !

للأستاذ عريان سعد

من أسهل الأمور أن يصف الإنسان الداء . فالطبيب يسمع تاريخ المريض ويتحسس مواطن الألم في أعضائه فما عليه بعد أن يتجمع من الأعراض التي يسببها داء بعينه إلا أن يقطع بأن ذلك الداء هو الذي يشكو المريض وطأته . وقد يختلج الطبيب الحاذق في وصف الداء لأنه اختلط عليه عرض داء آخر ، وقد تشابه الأعراض ولكن ذلك الخطأ رغم وجوده قليل بجانب أخطاء وصف العلاج .

ذلك إن الداء إن لم تتأصل شافة الأسباب التي سببته استعصى شفاؤه .

وكم من مريض يشكو الصداع مثلا فلا يزال يستشير طبيبا بعد طبيب وكل منهم يصف له علاجا لا يلبث أن تظهر قلة فائدته ، حتى إذا كشف طبيب موفق عن أسباب الصداع فنصح المريض بما يزيلها نال الشفاء وأنقذ من المرض .

معرفة الداء إذن سهلة لأن أعراضه ظاهرة وآلامه تدل عليه ، ولكن العسير الجوهري هو أن يعرف الطبيب أسباب ذلك المرض فيقضي عليها .

قدمت هذا لآني أريد أن أتطبب وأدعي العلم بالأمراض وأسبابها ، ولكنني ضربت المثل بالمرض الجسمي لأنقل إلى أمراض الاجتماع فأتخير مرضا أزهد وأكثر معالجه وتعددت (الوصفات) لعلاجه .

تهافت الشباب على وظائف الحكومة مرض لا أعلم أن كاتبها لم يكتب فيه ، ولا أعلم أن اقتصاديا لم يحضر عنه ، ولا أعلم أن عالما من علماء النفس لم يرسل فيه بحثا .

أحسن الجميع من غير شك وصف هذا الداء فصوره الكتاب صورة رسمت لنا الشباب مقعدا والميزانية أعمى بجملة فينوء بجملة وكلاهما شقي بصاحبه متبرم به ، الشاب لا يجد في ميدان الوظيفة ميذا لإظهار قوته وبطولة شبابه وعلمه والميزانية لا تتسع للشباب المتعلم فلا تزال بالدرجة فتخيلها مسخا لما كانت عليه من قبل ، ولا تزال تقسم العمل أقساما صغيرة لتضع في كل قسم واحدا من الكثيرين الذين يتفاوتون عليه ، حتى أصبحت الوظائف كما نرى صغيرة المرتب ضئيلة التدرج محدودة الأفق . كان ذلك كله لكي تتسع الوظائف لأكبر عدد ممكن من

الشباب المتعلمين لتخفف حدة التعطل في الظاهر لأن حقيقة أن أولئك المتعلمين المحشودين في الوظائف هم طامعون وما يتناولون من مرتبات إنما هي أرزاق تجري عليهم يقابلها مرتب التعطل الذي يقتضيه "بيفردج" في مشروعه، إلا أنه هنا مقنع بنقاب الوظيفة ودهنك مسافر. حر هنا دائم وهناك موقوت، لأنه هنا يبدو مرتباً لعمل محترم لا يأنف صاحبه من أن يعيش عليه وهناك إعانة تتمركز منها النفس الأبوية فلا ترضى بها إلا على مضض ولا تبدأ حتى تجد عملاً يغنيها عنه وعن مذلة العيش عائلة على المجتمع.

هذه الصورة رسمها لنا الكتاب ولونها كل منهم بالألوان التي تنفق ومزاجه وذوقه، ولكنها صورة واحدة الروح وإن تعددت أوجنها : هي أولاً وأخيراً تهافت الشباب المتعلمين على وظائف الحكومة.

ووصف علماء الاقتصاد هذه الحالة وسموها بالوان علم الاقتصاد فقالوا إن رضاء الشباب بتافه الأجور في الحكومة هو مظهر من مظاهر العرض والطلب ونصحوا الشباب بالإقلاع عن عرض نفسه على وظائف الحكومة كأنصحوه أن يقتحم أبواب البنوك والشركات وأن يتقل إلى العمل الحر.

وقال علماء النفس بل إن الشباب تنقصه الجرأة وتعوزه روح المغامرة.

هذا كله قيل وصفا للمرض ووصفا للدواء، ولكن الشباب لا يزال متعطلاً والاقبال على وظائف الحكومة زحاما، يزحم الشباب بعضه بعضاً حتى يلجأ كل منهم إلى تكأة ترفعه على أترابه وتقربه من الوظيفة تلك التكأة رأيناها وشكونا من شرها وضررها وقد اشتهرت بالمسوية والمحابة.

رغم مجهود الكتاب ورجال الاقتصاد وعلماء النفس لا يزال المرض على حدته.

أما أنهم أحسنوا وصف أعراضه فما لا شك فيه، وأما أنهم وصفوا له علاجا فهذا ما لا أعترف به، ولا أدل على أن ما وصفوه ليس علاجاً من أن الداء لا يزال موجوداً بل إنه يزداد على مر الأيام حدة وخطراً.

لقد وصفوا علاجات متعددة ولكن لو أن أحدها أو بعضها كان علاجاً حقيقياً لشفى المجتمع من ذلك الداء.

كان كل علاج منعباً على عرض من أعراض الداء لا على سبب من أسباب وجوده وإخفاء أعراض الداء لا تعني الشفاء منه وإن اختفى ذلك العرض زبد المريض كأنه قد شفى منه.

قد يكون المرض وأعراضه ناشئا عن شيء لا صلة له في الظاهر بذلك المرض وأعراضه ، كاللصاح بالصداع لامسالك مزمن مثلا أو لمن يضطرب قلبه لأن الصديد يتسرب من أسنانه أو جيب في أنفه إلى الدورة الدموية .

نحن نسمع الشكوى من تهاقت الشباب على وظائف الحكومة ونسمع وصف الشبان يفقد روح الابدام والمغامرة واقتحام ميدان العمل الحر .

قد يكون في بعض أنواع الصناعة مما لا يحتاج إلى دروس أموال كبيرة ما يفرينا بالشباب تهمة بأنه يترك تلك الصناعات ويفضل عليها وظائف الحكومة .

ولكن المرض في الواقع وإن ظهرت أعراضه في الشباب وتهاقت على وظائف الحكومة فاهتم الكتاب ورجال الاقتصاد وعلماء النفس بعلاج الشباب من مرضهم هذا ، الواقع أن المرض ليس في الشباب مثله مثل الصداع يظهر في الرأس وسببه في الأمعاء مما يسبب الامساك . المرض في الشيخوخة أصحاب المال .

لو أن تلك الأموال المكسبة في البنوك ينتظر أصحابها عمارة يشترونها أو عربة يضيفونها إلى عزمهم ، لو أن تلك الأموال برز بها أصحابها إلى ميدان المشروعات الاقتصادية الصناعية أو التجارية فأنشئت الشركات لاستغلال موارد البلاد وأنشئت البنوك تشد أزر بنك مصر في أداء رسائله بدل وحدته بين البنوك المتعددة الجنسية .

ولو أن تلك الأموال برزت إلى الصناعة كما برزت شركة مصر للسيج وشركة كفر الدوار .

إذن لا تلتصق تلك الشركات وتلك البنوك أولئك الشبان الذين نحاول أن نصرفهم عن وظائف الحكومة فلا نصرفهم ، لأن ذلك الباب وحده هو باب المستقبل أمامهم وهم معذورون إذا تراحوا أمامه .

لو أن الشيخوخة الذين أغنتهم الأيام أسسوا بأموالهم الشركات المختلفة التي يؤلفها في الخارج أمثالهم من الأغنياء ثم يفتحون لها في مصر فروعاً تدرك عليهم الكسب والثراء وتفتح أبواب المستقبل أمام شبانهم الذين ننظر إليهم بيننا ونحن نتحسر على حالنا لأن الحياة تدب فيهم بنما يأكل الصدا شبابنا في أقيية الوظائف الحكومية وكهوفها .

لو أن شيوخنا الذين أغنتهم الأيام أسسوا الشركات كرملة في يارب لكان شباننا أسرع إلى العمل لهم في شركاتهم منه إلى وظائف الحكومة .

ولكن شيوخنا مرضى بالنقار لا يعرفون من سائل امتياز المال إلا بيتنا يؤجرونه أو حقل يزرعونه أو يزرعه لهم الناس بالايجار أو بالحصص في المحصول أما الأعمال التي تؤلف الشركات لها فلا يؤمنون بها ولا يرضون عنها .

موارد ثروتنا نائمة سواء كانت مالا في البنوك أو موارد من موارد الطبيعة أو علمها في رموس الشباب أو سواعدهم ممتولة في أجسام الرجال ، مواردنا هذه كلها كامدة نائمة لو أوقظت لارتفع مستوى الحياة بسرعة هذا المستوى الذى نبكيه كل يوم وزرنيه ونطالب برفعه فيذهب بكأؤنا ورنائؤنا هباء شأن البكاء والرناء .

هذه الموارد كلها لو خرجت رموس الأموال من تفكير أصحابها الراكد الساكن الى دولاى الحياة الدائرا الدائب لأصبحت كلها ثمرة زاهرة وأول مورد فيها كضوء الشمس هو شبابنا المتعلم المتعطل لا لتقصيره ولا لقصوره ، ولكن لأن أبواب العمل مقفلة بل غير موجودة لا يستطيع الشباب أن يوجدوها ولكن أن أوجدوا من يستطيع وهم الشيوخ الأثرياء وبلجها الشباب في حماسه وقوته وأتى فيها بالمعجزات .

لقد بدأ بعض شيوخنا الأثرياء يستيقظون ويؤلفون الشركات ، ولكن أولئك قلة لا تفي مشروعاتها في علاج مشكلاتنا ، لأنها مشكلة ضخمة تحتاج الى مجهود كل شيخ لا الى هذه القلة التى نحمد لها ما شرعت فيه .

عريان يوسف سعد

الحزبة وقوة العزيمة

قال محمد بن الحنفية : ما كرمتم على عبد نفسه إلا هانت عليه الدنيا .

وقال شاعر :

الحر حر النفس حيث قوى كالشمس فى أى برج ذات أنوار

وقال آخر :

حلفت لأن ألقى الشدائد كلها وبما أن ألقى الهوان يدان
تذكرت أنى هالك وابن هالك فهانت على الأرض والفلان
فدع كل شئ، خالف العزم إنه سيكفيكم جدان . معتلجان
وما يدرك الحاجات مثل منابر ولا عاق عنها النيجع مثل تيران